

128- الشخصية الفرانقباضية (وأخواتها) (من منظور تطوري)

تمهيد :

الفضل لصاح جاهين، رحمه الله في نحت اسم الشخصية الفرانقباضية، ولو أن التعبير الفرانقباضي المقابل في الإنجليزية هو manic-depressive وهو لا يطلق عادة إلا على درجة اشد (حتى الجنون) من هذا الاضطراب ذي الوجهين (هكذا كان اسمه بالفرنسية يوم وصفه الطبيب النفسى فارليه (Folie de double face) وهو اسم طريف صحيح.

أهمية تقدم هذه الشخصية، وخاصة ما يصل منها إلى درجة الاضطراب، وليس المرض الأشد المقابل لها ، للزملاء وللشخص العادي، بدت لي ذات دلالة خاصة في هذه المرحلة ونحن نقدم بعض معالم الفكر التطوري المرتبط بالإيقاع الحيوى وذلك لتوضيح ما يلي:

1. إن اضطراب الشخصية المسماة "الفرانقباضية" هو نموذج للإيقاع الحيوى (المرضى) الذى هو أساس النظرية الإيقاعية التطورية **Evolutionary Rhythmic Theory** التى ينبنى عليها هذا الفكر.

2. إن وجود النبض الحيوى فى ذاته ليس دليل صحة إلا إذا أدت النبضات إلى النمو، وهذه الشخصية تنبض كأعلى ما يكون النبض لكن فى المحل، أى أن النبضة تنتهى حيث بدأت، وبالتالى يتوقف النمو برغم زخم التغير وحدة الحيوية حتى فى طور الانقباض

3. إن الجمع بين النقيضين فى شخصية واحدة يعتبر أمرا مألوفا، وهنا يحدث التواجد بالتبادل أساسا، وعلى فترات طويلة نسبيا ، (تراوح بين أيام إلى أسابيع إلى شهور إلى أكثر)، كما أننا يمكن أن نستفيد من ذلك فى تصعيد قبول فكرة الجمع بين المتناقضات من حيث المبدأ، دون الإسراع بهذا الاستعمال الجاهل لوصف أى تقلب من النقيض إلى النقيض على أنه فصام بلغة العامة (يتم ذلك غالبا فى المجالات الاجتماعية، وأحيانا السياسية وأحيان السبابية "ياه شوف دا متقلب ازاي! دا عنده شيزوفرينيا) !!

4. إن مجموعة الاضطرابات المسماة بـ "اضطرابات الشخصية": إنما ينظر لها من منظور التطور، باعتبار أنها "توقف دائم، أو شبه دائم، لمسيرة النمو".

5. إن تنوعات هذه المجموعة تقسم إلى فئات فرعية، من المنظور التطوري بناء على آلية التوقف المستعملة أكثر في كل نوع منها، جنباً إلى جنب مع نتائج هذا التوقف (أو الإجهاض) كما أنها تظهر في شكل سمات وسلوك عام، لا أعراض محددة.

مقدمة عن اضطرابات الشخصية عامة:

(من منظور تطوري)

إن النظر في طبيعة هذه الفئة وصعوبة تناولها وتحديد معالمها، تلزمتنا العودة للمواجهة الصريحة مع مشكلة الحد الفاصل بين السواء والمرض..، هذه المجموعة تحمل كل تحديات السؤال الأزل "من يحكم على من"، وذلك لسببين:

أولاً: أن هذا التشخيص لا يتم بناء على وجود أعراض محددة المعالم، وإنما على سمات ممتدة، صفات تصف الشخص ككل، بلا بداية محددة عادة،

وثانياً: إن من يعاني من أغلب أنواع هذه الشخصية، لا يذهب بنفسه تلقائياً لاستشارة طبيب نفسى في العادة، وإنما هو قد يُنصح بذلك، أو يدفعه المحيطون به إلى ذلك.

استمرار مسيرة النضج، واضطرابات الشخصية

من منطلق الفكر التطوري، يعتبر اضطراب الشخصية نموذجاً لتوقف النمو المفروض أنه المضطرب مدى الحياة، باعتبار أن هذا النمو المضطرب هو أمر طبيعي تماماً، إلا أنه، في الواقع، أمر غامض فيما نسميه "الحياة العادية"، خصوصاً في المجتمعات التقليدية والنمطية الساكنة، وهذا الغموض الذي يحيط باضطراب نمو الشخص العادي هو الذي يضيف إلى الحيرة ونحن نقيس اضطراب الشخصية بقياس النمو، الحيرة في تحديد معالم ما إذا كان النمو قد توقف فعلاً حتى نتعرف على (نَشْخَص) ما هو اضطراب الشخصية مقارنة باستمرارية نمو العاديين، فنحن آنذاك نواجه تساؤلات تقول:

• وهل يوجد مقياس لاستمرارية نمو العاديين؟

• وكيف نحكم على هذا التوقف الذي ربما يكون مجرد حالة كمون ينطلق بعدها المسار؟.

بالرغم من كل هذه الصعوبات فإن فهم اضطراب الشخصية من منظور تطوري يظل يعتمد على فرض حتم استمرار النمو في الأحوال العادية مدى الحياة.

إنه بدون تبني مفهوم النمو الدائم هذا يمكن أن نتفق مع من ينكر هذه الزملة أصلاً، ممن يزعمون أنها ليست بالضرورة مشكلة طب نفسية وإنما هي مشكلة اجتماعية، أو أخلاقية، وأن

مجرد دخولها إلى مجال الممارسة الطبية لا بد أن ينقل الاهتمام من التفكير في النمو من عدمه، إلى تحديد ظاهر السلوك الذى أتى بصاحبها إلى مجال الممارسة الطبية يطلب الاستشارة الطبية أو المعونة بأى شكل.

الخطوط العامة لمسار النمو البشرى

• النمو المستمر، للكائن البشرى يحدث بشكل تلقائى فى الأحوال الطبيعية (مع أن الأحوال الطبيعية أصبحت هى الأكثر ندرة بعد أن أصبحت إعاقة النمو هى القاعدة).

• إن هذا النمو يحدث تدريجيا - غير ملموسة نقلاته عادة - اللهم إلا أثناء ما يسمى أزمت النمو Growth Crises منذ الولادة وحتى الموت، بل إن الموت نفسه يمكن أن يعتبر أزمة نمو بشكل أو بآخر (انظر بعد).

• إن مفهوم النمو الفردى المتواصل، يوازى مفهوم التطور الحيوى المتواصل ، بل إن مفهوم التطور الذى تنتمى إليه هذه المدرسة يقر نظرية الاستعادة (لهيكل Recapitulation Theory (Heckl) التى تقول إن الأنتوجينيا (نمو الفرد) تكرر الفيلوجينا (تطور النوع).

• المفروض أنه لا شىء يحول دون ذلك إذا كان للتطور أن يستمر، وإذا كان للنمو الفردى أن يحقق غايته التى تمتد حتى إلى ما بعد الموت

• أن هذا النمو له قواعده الأساسية - من منظور التطور- هنا، كما أن له محكاته المحددة، ومن أهم ذلك:

1. إن النمو يسير فى نبضات تتكون من طور اندفاع (بسط Unfolding) بالتبادل مع طور ملء (تمدد) (Diastole) بما يقابل طورى الملء والانقباض فى دورة القلب النابضة.

2. أثناء نبضات الإيقاع الحيوى على مستوياته المختلفة يتجرع الفرد جرعات أكبر من قدرته على الاستيعاب الفورى ، ثم هو يعيد تشكيلها بانتظام، وهو يجترها ويتمثلها لينمو بها يوميا من خلال نوبات البسط المتلاحقة أثناء تبادل النوم واليقظة، وأكثر أثناء تبادل النوم الحالم وغير الحالم.

3. يتم النمو بشكل مستمر من خلال هذه النبضات إذا ما كان النوم يقوم بوظيفته الوقائية التفريغية والنموية الاستيعابية معا، بغض النظر عما إذا كنا ندرك آثار ذلك أم لا

4. هذه الإيقاعات الليلنهايرية عادة لا تكفى للاستيعاب المتكافئ لكل المعطيات المدخلة فالتراكمه، وهى أيضا لا تكفى للوفاء بالتشكيل الفورى الكامل أثناء طور البسط، مما يترتب عليه تراكمات متتالية متزايدة تحتاج إلى نبضة نمو عملاقة ، وهو ما يحدث فيما يسمى أزمت النمو المتتابعة (الثمانية مثلا كما عددها إريك إريكسون).

5. إن نبضات عملية النمو تكون نشطة ومتابعة في الطفولة الأولى ثم المراهقة، ثم إنه كلما تقدم العمر تصبح أطوار "الملء" أطول فأطول على حساب أطوار "البسط"، وذلك باضطراب مرور سنين العمر.

6. إن هذه النبضات لاتتوقف فعلا ونهائيا إلا بالموت الجسدي (وقد لا تتوقف)

7. إن ترجيح استمرارية كفاءة النمو لا يتعلق بالسن الزمني بقدر ما يتعلق بمرونة وإبداعية الشخصية في نبضاتها، أى بقدرتها على الاستيعاب والتمثل المنتظم المتزايد للخبرات التى تنمو بها.

8. إن هذا الاستيعاب النمائى يتم من خلال نبضات الإيقاع الحيوي على كل المستويات كما أشرنا حالا.

ماهية اضطراب الشخصية

(من منظور تطورى)

اضطراب الشخصية هو توقف جسيم نتيجة إعاقة ممتدة أو متكررة، (حتى الإجهاض المعاود) لنبضات الإيقاع الحيوي لمسار النمو البشرى بما يترتب عليه **الانحراف** عن مسار النمو، أو **تجميده**، أو **بالدوران المخلق في المخل**، أو **إجهاضه أولا بأول**، أو غير ذلك،

وفيما يلى سوف نقدم شرح ثلاثة آليات لتوقف أو تأخر نضج الشخصية بشكل شبه دائم، كما سوف نؤجل تقديم **آليات توقيف النضج الأخرى** حين عرض أنواع أخرى من اضطراب الشخصية تناسبها.

بعض آليات توقيف النمو:

1. أن ينتج عن تذبذب عملية النمو وعدم كفاءة أطوار النبضات المتلاحقة تأخر في اكتساب سمات سلوكية تتناسب مع مسيرة النمو في أطوار العمر المختلفة، مما ينتج عنه تأخر النضج وظهور مظاهر طفلية ومخلّة في تصرفات الشخص البالغ، ومثال ذلك **الشخصية غير الناضجة أو غير المستقرة انفعاليا** بوجه خاص.

2. أن يحدث طور الاندفاع (البسط) في ظروف غير ملائمة، مما يعرض الكيان النمائي إلى إحباطات ورعب وانكماش بحيث تُجْهَض النبضة لدرجة ألا يجرؤ الفرد على معاشتها ثانية، فلا يعود ينبض إلا نائما وفي السر لسرعة الهو والإنكار، بل إن هذا النبض أثناء النوم والحلم يكون غائرا في طبقات الشخصية الأعمق بحيث لايتبادل مع أى أطوار أخرى،

وينتج عن هذا وذاك توقف النضج بالمعنى النابض المتبادل الذى قدمناه،

وكأن الإيقاع الحيوي القادر على البسط والإبداع قد انقلب إلى **انتفاضات تدفن** حيث بدأت باستمرار.

بالتوازن إخلالا جسيما .

(د) أن تكون نوبات الاستيعاب نشطة بحيث لاتصبح كمونا خاملا دائما .

(هـ) أن يحدث بعد كل نوبة بسط تغير في اتجاه النمو، بحيث لايعود الفرد النامي إلى نفس مستوى نشاطه السابق تماما، بل يرجع إلى مستوى مختلف نوعيا، بمعنى أنه أعلى ولو قليلا في اتجاه الحركة والنمو والحيوية والتواصل، مما يؤكد أن حركة النمو لولبية وليست دائرية مغلقة .

النض المغلق الدائرة في الشخصيات النوابية

بعد هذه المقدمة سوف نؤكد على آلية توقيف النمو الأخيرة، حيث أنها وراء الدائرة المغلقة التي ترتب عليها هذا النوع من اضطراب الشخصية :

إنه إذا استبدل بهذا النشاط الإيقاعي المثري المتناوب، نشاط شبيه به، لكنه أكثر حدة ومع ذلك هو لا يحقق الغاية منه إذ يرجع الحال بعده إلى نفس نقطة البداية (وربما إلى مستوى أدنى بالفحص المجهري الدقيق) فإنه لايعود نشاطا ناميا، بل إنه **يعتبر نشاطا توقيفياً**، لأنه حل محل النشاط اللولبي النامي، ومن هنا أسيناه نشاطا دائريا مغلقا، لأنه **يغلق النمو في دائرة موضوعية بدلا من أن يبسطه في تصاعد لولبي**.

تتصف هذه المجموعة بأن الشخصية تتميز بتناوب نشاطها بين **قطبين** دون حتم انتظام هذا التناوب، ومع وجود فترات كمون متفرقة ومختلفة الطول بين كل نوبة والأخرى، وذلك دون أن تترك هذه النشاطات المتناوبة أى أثر نمائى إيجابى بعد حدوثها، وتسمى مثل هذه الشخصيات باسم "اضطراب الشخصية" النوابية Cycloid-Personality Disorder ، ويمكن تمييز بعض أنواع هذه الاضطرابات بعرض الأمثلة التالية :

الشخصية الفرحانقباضية :

1 - الشخصية الفرحانقباضية

تتميز هذه الشخصية بتناوب مزاجها بين الحزن والفرح بشكل متلاحق دائرى كما أسلفنا، وقد يتخلل ذلك فترات كمون هامد، ولا بد أن نعيد التذكرة بأن كلا من الفرغ والانقباض: هما من أنشطة "البسط"، فالفرح ليس نقيض الانقباض إلا من الناحية السلوكية والدينامية، فهما مظهران لنشاط واحد وهو النشاط الاندفاعى أساسا .

يكون التناوب بين الفرغ والانقباض حادا بدرجة لاتسمح للنشاط الامتدادى الملئى أن يأخذ فرصة استيعاب خبرات البسط هذه، وبالتالي فإن هذا التناوب الاندفاعى المغلق المتلاحق يوقف النمو بطريق غير مباشر، إذ لا يسمح للنشاط المكمل له أن يأخذ فرصة حقيقية لاستيعاب هذه الخبرات .

أحوالها

قياساً على هذا التناوب المغلق الدائرية، قمت بوصف عدد من الشخصيات الدورية النوابية، تحت مسمى: "أخواتها" (أخوات الشخصية الفرحانقباضية) على الوجه التالي:

2 - الشخصية المغرانشحابية: The invasive-withdrawn

تتميز هذه الشخصية بالتناوب بين قطبين أقل شيوعاً من قُطْبَيْ الفرَح والاكْتئاب وهما قطبي **التقدم الجسور** **مقابل الانسحاب المتماذي**.

مثل هذا الشخص بوجّه طاقة نبضات الاندفاع (Systole) إلى اكتساح ما أمامه في **إغارة مهيمنة لا تسمح له بأن يرى الآخر** منفصلاً عن اندفاعه بحيث تتاح له الفرصة في احتكاك يؤدي إلى النمو،

يتبادل مع هذه الاندفاع، **انحسار تراجمي بنفس الحدة أحياناً**، وقد يكون انسحاباً حقيقياً (فيزيائياً بنفسه وجسده) أو تواصلياً يلغى به وجود الآخر تماماً، حتى لو ظل شكل العلاقة قائماً

وقد يصاحب هذا الانسحاب بعض مظاهر الكمون الظاهري

نحن نعني هنا أن كلا من **الانسحاب النشط** المحتج الذي يعقبه **إندفاع تال** - ليس بالضرورة بهذا التابع - كلا من هذا وذاك يمثلان طور البسط أيضاً، وهذا غير الانسحاب النمطي المتحوص الذي هو من صفات الشخصية الانطوائية الشيزيدية، Schizoid وهو ما نعنيه هنا،

نتيجة لذلك وعلى نفس القياس وبسبب **التناوب المغلق المتلاحق** يتوقف النمو نتيجة لانغلاق الدائرة دون تصاعد لولي، وهذا النوع من التوقف هو الصفة الأساسية في سائر اضطرابات الشخصية من هذا النوع.

3 - الشخصية الشكاثوائية: The suspicious-incorporative

قطبي التناوب في هذه الشخصية هما **الشك والاحتواء**:

يغمر **الشك والتوجس** مثل هذا الشخص إذا ما اضطرب لاستقبال الآخر، كآخر، وقد يكون هذا **الشك والتوجس** مجرد تمهيد لخطوة أخرى من الانسحاب،

وعلى قدر غلبة **الشك** واستمراره دون التسرع بالانسحاب، إزاء طور **الحذر والتخوين والتلف وسوء التأويل**،

أما القطب المقابل لهذا **الشك والتوجس** فهو **الاحتواء**، حيث يبدو مع نشاط هذا القطب يبدو أن هذا الشخص **الشك** نفسه، قد عاد ناجحاً في علاقاته مع آخرين نجحاً ملحوظاً، وهو يقربهم إلى نفسه ويضع فيهم ثقة خاصة ومبالغة، والواقع أنه لا يفعل ذلك إلا بقدر ما استطاع أن يحتوى هؤلاء الأشخاص داخل عالمه الذاتي (أى داخل ذاته نفسها)، **فهم ليسوا شخوصاً بالمعنى الموضوعي بل مجرد موضوعات مُدخلة**،

إن المهم هنا هو وجود التناوب بين هذين القطبين بشكل يجهض النمو بإغلاق دائرته،

وكلما من الشك والاحتواء يعبران عن التناوب بين استقبال الآخر منفصلا، أو احتواء الآخر تابعا أو قابعا داخل ذات صاحب هذه الشخصية،

وبألفاظ أخرى، فإن مجرد أن يتمائل الآخر خارج ذات المحتوى له، يصبح تهديدا له، ومن ثم الشك، إلى أن ينجح في احتوائه من جديد ومن ثم الطمأنينة المفرطة وأحيانا الاعتمادية، وهكذا.

قد يحدث هذا التناوب في تلاحق،

وقد يمتد ليمثل دورات، تماما مثل الشخصية الفرحانقباضية.

وقد يتواجدان معا، ولهذا شأن آخر في نوع آخر من الشخصية.

4- الشخصية الخلمانفجارية The Tolerant Explosive

الخلم (بكسر الخاء) من صفات الخليم وليس من صفات الخالم

ربما يكون المثل الشائع الذي يقول "إتق شر الخليم إذا غضب"، هو الذي دفعني لإدراج هذا النوع الذي مازلت مترددا في أحييته، ذلك لأن التناقض هنا لا يكون دوريا أو متبادلا بنفس إيقاع وتباعد الشك والاحتواء، أو الفرغ والانقباض.

النتيجة على أية حال هي توقف النمو، وهذا النوع يختلف عما إذا ما كانت آلية الإيقاف هي الإجهاض النزوى لنبضة النمو مما سيأتى ذكره مع اضطرابات أخرى (الشخصية العاصفية مثلا).

5- الشخصية الوغدنبوغية

استلهمت هذا الوصف من رواية العطر، حين جمع مؤلفها زوسكند بين الوغدنة والنبوغ، ليس فقط في بطلها القاتل زوسكند، وإنما في عدد من أصحاب الأسماء الشهيرة في التاريخ، إن اجتماع هاتين الصفتين "النبوغ" و "الوغدنة" ليس نادرا، وفي نفس الوقت هو ليس مقبولا منطيقا لأول وهلة.

هل يمارس صاحب هذه الشخصية هاتين السمتين بالتبادل أم أن النبوغ في ذاته قد يكون له جانب وغد وبالعكس؟

هذا جائز وذاك جائز، ولو أتى أرجح أن ما يجعل النابغة يتحمل وغدنته هو افتراض هذا التناوب ولو بدرجة يسيرة.

مسار الشخصية الفرحانقباضية (وأخواتها)

لو تتبعنا هذه التنويعات المختلفة للشخصية النوابية على مدى سنين طويلة، لأمكن أن نلاحظ تناقص النوبات بمرور الزمن تكرارا، وتناقص حدتها كذلك، وذلك لأن النبض النمو يتناقص بطبيعة النمو،

